وسائل التوجيه اللساني وأثرها الحجاجي في خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام)

م. ضياء حسب داغر
أ.د. قاسم محمد كامل
جامعة ذي قار/ كلية الآداب

Linguistic Guidance and its Argumentative Impact on the Discourses of the Two Imams (Peace Be Upon Them)

Lec. Diaa Hasab Dagher
Prof. Dr. Qasim Muhammad Kamil
University of Dhi Qar / College of Arts
d8d8h0h0@gmail.com

Abstract:

The argumentative process emerges from a set of interrelated rhetorical dimensions, most notably the inherent argumentative force embedded within language itself-both in its essence and substance-regardless of any external contextual factors. Among the most significant and specialized contemporary theories that address the argumentative structure of language is the theory of Argumentation in Language, developed by the French linguist Oswald Ducrot. Ducrot's work is primarily concerned with the argumentative potential derived from the internal structure of language and utterances themselves, including meaning, morphology, phonology, semantics, and lexical aspects. Consequently, the researcher has adopted this theory as the theoretical framework for the study titled Linguistic Orientation and Its Argumentative Impact, given the close relationship between orientation markers and performative acts, which play a critical role in persuading and influencing the audience, ultimately directing them toward the speaker's intended meaning and communicative goal.
"orientation markers", "illocutionary acts", "argumentative impact".

Keywords: linguistic directives, performative verbs, argumentative effect.

الملخص:

إنّ عملية الحجاج تحصل نتيجة مجموعة جوانب خطابية مترابطة، ومن أبرزها نتاجًا، ما حملته اللغة ذاتًا وجوهًا من قوة حجاجية، بغضّ النظّر عمّا يحمله خارجها، ومن أهم النظريات الحديثة وأنوها تخصصًا بدراسة البنية الحجاجية للغة، هي نظرية (الحجاج في اللغة)، لمؤسسها اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو (O.Ducrot)، إذ أهتم في دراسة الحجاج الناتج عن بنية اللغة والأقوال ذاتها، وفي المعنى، وما يتعلق بجوانب اللغة الأخرى كالصرف والصوت والدلالة والمعجم؛ لذلك عمِد الباحث لجعلها إطارًا نظريًا لمبحث (التوجيه اللساني وأثره الحجاجي)؛ لما

للموجهات من صلة وثيقة بالأفعال الانجازية التي تساهم في إقناع الجمهور واستمالته، ومن ثم توجيهه نحو مراد المتكلم وهدفه.

الكلمات المفتاحية: الموجهات اللسانية، الأفعال الانجازية، الأثر الحجاجي.

وسائل التوجيه اللساني وأثرها الحجاجي:

إنّ مصطلح التوجيه مفهوم واسع، ويدخل تحت عناوين وعلوم معرفية كثيرة بمعان متعددة منها: علم النحو، والمنطق، والفلسفة، واللسان، فهو من المفاهيم الواسعة والتي توسعت على مدى العصور وكثر استعمالها، مع الاختلاف في المعنى فكل علم قد وظّف المصطلح حسب مراده، والمهم في دراستنا هو الاطلاع على معناه المستخدم عند اهل اللسان بحسب مبنى نظرهم للموجهات، واستخدامهم المعين لهذا المعنى، فهم توسعوا في دراسته وتعمقوا في بحثه[١]، فضلا عمّا اضافته بعض النظريات في مجال الاستعمال لبحث الموجهات، كنظرية –جون أوستن في دراستها الموسومة بـ (قوة الأفعال الانجازية)– الى بحث الموجهات[٢]، إذ إنّها اهتمت ببحث علاقة الأفعال بالموجهات. وقد عرّفوا الموجه: "وجهة نظر الفاعل الناطق حول المقول في ملفوظ ما"[٣]، والمقصود بـ(المقول) موضوع الكلام ومضمون الجملة، امّا (وجهة النظر) فيقصد بها الحكم الثاوي على الحكم الاولي، ولهذا أصبح حقل التوجيه حقلًا واسعًا، فقولك: (جاء زيد مسرعًا) قولٌ موجّه، لأنك حين قلت (جاء) حكمت على زيد حكم اولي بالمجيء، وهذا الحكم عينه محكوم عليه بحكم ثاوي كون مجيئه (مسرعا)، فكل قول عادي يشتمل حكمين أو أكثر يعتبر موجها[٤].

وبحسب نظرية (سيرل) في (الأفعال اللغوية) فأنه جعل فعل التوجيه داخلًا ضمن الأصناف الخمسة، وقد حدّها سرل، اي الأفعال التوجيهية، بأنها: "كل المحاولات الخطابية التي يقوم بها المرسال بدرجات مختلفة؛ للتأثير في المرسل إليه؛ ليقوم بعمل معين في المستقبل"[٥]، وحيث ان هدف المتكلم وغايته إقناع المتلقي والتأثير في قناعته، فأُلجيء حينئذ الى استعمال جملة من الروابط والعوامل الحجاجية والوحدات المعجمية التي لها سمة وبُعد حجاجي تُعين المتكلم في بلوغ مراده والوصول الى غايته في الحجاج والتي بمجموعها تدخل تحت عنوان (الموجّهات اللسانية)[٦]، فلوسائل التوجيه اللساني دورًا بارزًا في الخطابات الحجاجية، حيث تُعين المتكلم في توجيه المتلقي لما يبتغي الوصول اليه؛ لأن وظيفتها القيام بتحفيز المتلقي لمراد المتكلم بواسطة توجيه المنجز اللفظي وتغيير

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، ابتسام بن خواف: ٣٣٦.
(٢) ينظر الملفوظية، جان سيرفوني: ٦٠.
(٣) م.ن: ٥٩.
(٤) الحجاج في القرآن: ٣١٥.
(٥) استراتيجيات الخطاب: ٣٣٦.
(٦) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي، ابتسام بنت خواف (أطروحة دكتوراه): ٢٤٦.

السياق لما يتوافق مع مراد المتكلم؛ إذ إنّ "اللغة تعمل على إنّها تعبير عن سلوك المرسل، وتأثيره في توجيهات المرسل إليه وسلوكه"[١]، ومن ثَمّ جاء التفاعل مختزلا ضمن مفردات الخطاب، حيث يكون تغيّر الروابط التوجيهية منوطا بتغيّر أنماط المتلقين[٢].

إنّ المتتبع لخطاب الإمامين الصادقين (عليه السلام) يجد فيه سمة التوجيه اللغوي بارزًا، بل عمدا في مرات عدّة، لتوظيف وسائل التوجيه اللساني لإقناع المتلقين وتغيير قناعاتهم والتأثير فيهم بشكل واضح وفعّال، وفيما يأتي دراسة لبعض وسائل التوجية اللساني وتطبيقها في خطابهما (عليهما السلام):

أولًا: وسائل التوجيه غير اليقينية (أفعال الشك او التقريب):

١. (لعم):وهو من الموجهات الشكّية التي تستعمل في حالة الظن الضعيف او المعتقد بكذبه[٣]،والمتتبع لخطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام)، يجد مصاديقًا كثيرةً قد اتصفت بمثله في جملة من الملفوظات، وكان الهدف من إستعمال هذا الموجه لتوجيه المخاطب للجهة التي يريدها المتكلم، بواسطة هدم ونفي حججه ومبانيه والذهاب لتأسيس حجج جديدة ترمي الى تحقيق مبتغى وارادة المتكلم، ولذا فهو من اهم الروافد الحجاجية، التي تؤثر في المتلقي وتنتزع منه التسليم والإذعان، ومن مصاديق ذلك الموجه ما نجده في حجاج الامام الباقر (عليه السلام) مع الحسن البصري[٤]، حينما جاء للإمام الباقر (عليه السلام) سائلًا، وقد اغتنم الامام (عليه السلام) الفرصة في توجيهه ومحاجته حول اعتقاداته الباطلة، إذ قال الحسن(١١٠ هـ): "جئتك لأسألك عن أشياء من كتاب الله، فقال أبو جعفر: ألست فقيه أهل البصرة؟ قال: قد يقال ذلك، فقال له أبو جعفر عليه السلام" هل بالبصرة أحدٌ تأخذ عنه؟ قال: لا، قال: فجميع أهل البصرة يأخذون عنك؟ قال: نعم، فقال أبو جعفر (عليه السلام) "سبحان الله لقد تقلدت عظيما من الأمر، بلغني عنك أمر فما أدري أكذاك أنت أم يكذب عليك، قال: ما هو؟ قال:زعموا أنك تقول: إن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم، قال: فسكت الحسن، فقال:رأيت من قال الله له في كتابه: أنك آمن هل عليه خوف بعد هذا القول منه، فقال الحسن: لا، فقال أبو جعفر (عليه السلام)" إني أعرض عليك آية وأنهي إليك خطابا،ولا أحسبك إلا وقد فسرته على غير

(١) استراتيجيات الخطاب: ٣٢٩.

(٢) ينظر: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة: ١٣٨.

(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني: ٣٨٠.

(٤) هو الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ويقال مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي، قاله عبد السلام أبى مطهر، عن غاضرة بن قهد العوفي، ثم قال: وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية، ويقال: كان مولى جميل بن قطبة، ويسار أبوه من سبي ميسان سكن المدينة وأعتق، وتزوج بها في خلافة عمر، فولد له بها الحسن –رحمة الله عليه – لسنتين بقيتا من خلافة عمر واسم أمه خيرة، ثم نشأ الحسن بوادي القرى، وحضر الجمعة مع عثمان، وسمعه يخطب، وشهد يوم الدار وله يومئذ أربع عشرة سنة. ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي: ٤ / ٥٦٤.

وجهه فإن كنت فعلت ذلك فقد هلكت وأهلكت، فقال له: ما هو؟ قال: أرأيت حيث يقول: "وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَياماً آمِنِينَ"، يا حسن بلغني أنك أفتيت الناس فقلت: هي مكة، فقال أبو جعفر (عليه السلام) فهل يقطع على من حج مكة، وهل يخاف أهل مكة، وهل تذهب أموالهم؟ قال: بلى، قال: فمتى يكونون آمنين..."[١]، فالامام الباقر (عليه السلام) إستعان بفعلين من أفعال الشك في توجيه حجاجه للحسن البصري، الاول: (عموا)، والثاني: (لا أحسبك)، لكن الموضعين والفعليين يختلفان من حيث التوجيه والقصد في الاستعمال، فالأول (عموا) ذكّره بعقيدته الفاسدة وهي عقيدة التفويض –تفويض الاعمال الى العباد جميعًا بعد خلقهم ولا شأن ولا إرادة للخالق– وهي عقيدة فاسدة تبناها بعض المسلمين[٢]، فالإمام(عليه السلام) يعلم بعقيدة البصري وبقوله، لكنه وجه اليه الخطاب عِبر فعل الشك(عموا) الذي يفيد التردد وعدم اليقين، لإلزامه بما يقر به على نفسه ويعترف به من غير إكراه، فترك له حرية الاختيار، فنجد أن المتكلم يعطي خصمه الحرية في الإجابة، متخذا الحياد في توجيهه،ولا يحكم عليه بشيء إلا بعد إقراره او نفيه بما وُجه اليه من زعم، فلما سكت ولم يدافع عن زعم القوم ثبت عليه حكم القوم وتحول الزعم الى يقين بعد إقرار المتهم بما وجه اليه من اتهام، ولو قال الإمام الباقر(عليه السلام) له مباشرة لماذا تقول بالتفويض؟ لأمكنه أن يحتج على الإمام(عليه السلام) وواجهه بالرد: كيف تحكم عليّ وبيني وبينك آلاف الكيلو مترات فلم تراني ولم تجلس معي؟ هذا من جهة، ومن أخرى ربما سيتنكر لعقيدته الفاسدة اذا عرف إنكار الامام (عليه السلام) وبغضه لها، لكن الامام الباقر (عليه السلام) استعان بفعل الشك (زعم) لسد الباب بوجهه، خشية الإنكار والتهرب، فضلا عن إجتزار التسليم والإقرار منه من جهة، ومن أخرى لإخفاء رأي الامام (عليه السلام) بقبولها او رفضها قبل إقرار المخاطب ومعرفة رأيه، وهذا من الإبداع والألق في حجاج الامام الباقر(عليه السلام) مع خصومه، والمنحرفين عقائديا، فلا يبدأ بالهجوم والاستنكار ليحذر المخاطب ويستعد للرد، بل يستدرجه شيئًا فشيئًا الى الإقرار والإذعان، امّا في الموضع الثاني فخاطبه بفعل الشك (لا أحسبك) وهنا تغيّر مسار الخطاب، مع إنّ الإمام كان حاكيا عن ذاته، فيعتبر يقيني لعقيدتنا بعلمه وعصمته عن الخطأ الّا إنّه هنا في لسان محاكاة الخصم ومجراته، إذ حصلت بعض المعطيات لدى الامام لا سيما بعد ان أقر المخاطب ببعض الاحكام، فقام الامام (عليه السلام) باستدراجه وتوجيهه الى الجهة المقصودة في هدم مبانيه وبيان فساد عقيدته من خلال توجيه السؤال له بـ (لا أحسبك الا وقد فسرته على غير وجهه...) فهنا الامام (عليه السلام) قد قام الامام (عليه السلام) ضيّق الخناق والخيار على الحسن البصري في الاجابة، ولم يتهمه مباشرة، بل قال(لا أحسبك) ليرسل اليه إنّي غير متأكد من انك سوف تخفق

(١) الاحتجاج، الطوسي: ٢ / ٦٣.
(٢) العقيدة الاسلامية على ضوء مدرسة اهل البيت (ع)، جعفر السبحاني: ١١٠.

في اجابتك لكن اشك في ذلك، واذا صدق شكي فقد هلكت وأهلكت غيرك ممن يتبعك ويتخذك اماما وعالما في العقيدة، فما أروعها من محاججة وما الطفه من أسلوب حواري، فالإمام (عليه السلام) لو أستعمل معه فعل من أفعال اليقين لكان بالإمكان رد البصري على الامام والدفاع عن اتهام الامام له، لأنه سيكون مظلوما بحسب الظاهر في حال توجيه السؤال المتضمن للحكم اليقيني على الخصم البصري قبل إقراره، لكنّ الامام (عليه السلام) لواعته في الحوار، وجّه اليه فعل الشك حتى لا يدع للبصري اي حجة او منفذًا للهروب، فقال له (لا أحسبك الا وقد فسّرته على غير وجهه فإن فعلت فقد هلكت وأهلكت...)، وبعد أنْ جعل المخاطب محصورًا بين النفي والإثبات، وجه اليه السؤال الذي أحرجه وأخذ منه التسليم والإذعان بفساد عقيدته وهدم مبانيه، لإنه أستشهد عليه بكلام العزيز الجبار ووعده بأمان زائري بيته المكرم، فهنا الحسن البصري تحيّر بين ان يكذب الله عزّ وجلّ في وعده والعياذ بالله، وبين ان يقر بفساد عقيدته، وخواء علمه وضلاله، فهو بين امرين احلاهما مرّ، ولا يستطيع اختيار الاول لنصرة عقيدته لأنه خروج عن ملة الاسلام وإعلان الإلحاد وعدم الايمان بالله صريحا، فما بقي الا الثاني الذي هدم مبانيه بيده، وفضح ضلاله بلسانه، واقر على نفسه مكرها بالجهل والضلال والإضلال.

كذلك وجدنا الامام الصادق (عليه السلام) اقتفى اثر ابيه في محاججاته، فاستعان بأهم الوسائل التوجيهية اللسانية الحجاجية على اختلاف أصنافها، ومن الشواهد على ذلك استعانته بفعل الشك (عم)، فقد روى لنا ابن مسكان[١] حادثة امتعاض الامام الصادق (عليه السلام) من بعض اصحابه الذين يهتكون اسرار اهل البيت (عليه السلام) ولا يلتزمون بحفظها، وينسبون الكلام على اهل البيت (عليه السلام) زورا، ويحرفون كلامهم، فخاطبهم محتجا عليهم امام الله والشيعة، إذ قال:" سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: قوم يزعمون إني إمامهم، والله ما أنا لهم بإمام، لعنهم الله كلما سترت سترا هتكوه، أقول كذا وكذا، فيقولون: إنما يعني كذا وكذا، إنما أنا إمام من أطاعني"[٢]، فالإمام الصادق(عليه السلام) بين غضبه وامتعاضه من هؤلاء الوضّاعين، واتهمهم بعدم تشيعهم حقيقة بل يزعمون اي يظنون إنهم شيعة، فاستعمل فعل الشك (عم) ليُعبِر عن كذب مدعاهم بعده مباشرة، فقدّم الفعل (عم) الذي لا ينفع اليقين بل هو مجرد ادعاء بلا برهان، فابتدء خطابه ب(يزعمون) ليمهد لنتيجة الحكم

(١) عبدالله بن مُسكان مولى عنزة، وكنيته أبو محمد، وذكر أصحاب التراجم أنه توفي في أيام الامام الكاظم (عليه السلام) قبل ١٨٣ هـ، هو من أصحاب الإجماع الذين قال عنهم الكشي: أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح من هؤلاء وتصديقهم لما يقولون، وأقروا لهم بالفقه، من دون أولئك الستة الذين عددناهم وسميناهم، ستة نفر: جميل بن دّراج، وعبد الله بن مُسكان، وعبد الله بن بُكير، وحمّاد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان. وقع في أسناد أكثر من ٢٧٩ موردا من أسانيد المروية في الكتب الحديثية بعنوان (عبد الله بن مسكان)، وفي ٩٧٤ موردا بعنوان (ابن مُسكان). ينظر: رجال الطوسي، للشيخ الطوسي: ٢٦٤.

(٢) الغيبة، محمد بن اراهيم النعماني: ١ /٤٢

الذي أقامه عليهم ونبذهم وتكذيب إدعائهم، فاستخدامه للفعل (زعم) قد مهد اليه الطريق نحو تكذيبهم،وادى الوظيفة التي قصدها المتكلم حيث وجه المخاطب الى الجهة المقصودة له وهو اثبات تكذيبهم والتحذير من اتباعهم في ما ينقلون، وفي موضع آخر نجد الامام الصادق (عليه السلام) يوظف فعل الشك (زعم) في ذم وتكذيب من يدعون كذبا انه هو الامام المهدي (عليه السلام) حيث قال: "تَزْعُمُونَ أني أنا المَهْدِيُّ، وإنّي إلى أَجَلي أَدنى مِنّي إلى ما يَدَّعونَ"[١]، فنجد انّ الامام الصادق (عليه السلام) في الموضعين قد أبتدأ بالفعل (زعم) تمهيدا لاقناع المتلقي وتوجيه لتكذيب مدعى جماعة، قد ادعوا دعوة قام بإنكارها، ولأجل تقوية حجته وتوجيه المتلقي لما يريد قام باستعمال الفعل التقويبي (زعم) ليهدم مبنى ومدعى الاشخاص الذين قصدهم.

٢. (ظنّ): والظن "هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك. وقيل الظن: أحد طرفي الشك بصفة الرجحان"[٢]، وقد عُدّ الظن من ضمن الأفعال التلميحية التوجيهية، ومرتبتها دون افعال اليقين[٣]، ولذلك يتجاذب فعل الظن جهتان، جهة اليقين وجهة الشك، فتارة يقترب من اليقين وثانية يقترب من الشك[٤]، ولهذا تجد الفعل (ظن) قد ارتبط استخدامه في الحجاج التخاطبي، والسياق التداولي كثيرا، لما يمتلك من قوة حجاجية ذات حدين، تعين المتكلم في توجيه المخاطب والأخذ بذهنه وقناعاته نحو الجهة التي يريدها ويروم اليها المتكلم، وفي الشريعة وُظف فعلك (الظن) توظيف إضافي حيث قُسّم على (حسن) و(سوء) لذلك جاءت اغلب كلمات الشريعة حاثة ومشجعة على الظن الحسن، وذامة ومنفرة عن الظن السيء، وقد افاد الإمامين الصادقين (عليهما السلام) من سمات الفعل (ظنّ) في خطابهما الحجاجي، إذ وظفاه في الخطاب الذي يناسب جميع وظائفه ومقاماته، وإنّ كان الجانب الشرعي هو الطاغي على غيره، وللفعل (ظنّ) صنفان من الاستعمال:

١. (ظنّ) الذي يقرب من الشك: ومثل هذا قد استعمل في خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) فيما فيه نهي وشجب عن فعل ما أو عقيدة معينة عادة. ومن ذلك ما روي عن الامام الباقر (عليه السلام) مخاطبا بعض شيعته ومحتجا عليهم بعتابه، إذ قال: "لئن ظننتم أنا لا نراكم،ولا نسمع كلامكم، لبئس ما ظننت"[٥]، فالإمام الباقر(عليه السلام) استعمل هنا الظن القريب من الشك وهو مذموم لابتعاده عن العلم واليقين، فلا يكون برهاناولا حجةولا يورث يقينًا او اطمئنانًا، معاتبًا بعض أصحابه الذين يفعلون المنكر والقبيح في ما لو كانوا غائبين، ومبتعدين عن أنظار إمامهم ظانين توهمًا إنّ أفعالهم المنكرة لا يعلمولا يُخبر بها إمامهم،

(١) البرهان في علامات مهدي اخر الزمان، المتقي الهندي: ١٧٤.
(٢) التعريفات، الجرجاني: ١١٨.
(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٣٩٨.
(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: ٣/٣٤٥.
(٥) بحار الانوار، المجلسي: ٤٦ / ٢٥٥.

فذمهم على ذلك واستنكر عليهم ظنهم الذي قادهم الى التوهم والانحراف عن وصايا إمامهم وطاعته في المعروف، وكذلك نجد الامام الصادق(عليه السلام) وظّف الفعل (ظنّ) في محاججته مع بعض الزنادقة والملحدين، إذ قال (عليه السلام) له مخاطبا: "أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم،ولا حجة للجاهل على العالم، يا أخا أهل مصر، تفهم عني، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان، يذهبان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان، وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهارا والنهار ليلا؟ اضطرا والله يا أخا أهل مصر إن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم فلم يردهم؟ وإن كان يردهم فلم يذهب بهم؟ أما ترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض،ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبرها. قال (الراوي): فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله"[١]، فالزنديق من اصحاب عقيدة الدهرية والذين ذكرهم الله في كتابه العزيز وذمهم، إذقال تعالى:{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[٢]، وهذه من العقائد الفاسدة لأنها تنكر الحياة الآخرة المستلزمة للمعاد والبعث الإلهي حيث الحساب اما الثواب او العقاب، ويعتبرون الحياة الدنيا هي الاولى والأخيرة وان الدهر اي(الزمن) هو الذي يهلكهم نتيجة تقادم أعمارهم وهلاك قواهم وابدانهم، فهي دعوة فاسدة أنكرها عليهم الله عزّ وجلّ، وبيّن سبب لجوئهم ومقالهم بمثل هذه المقولة المنحرفة، بقوله تعالى:{مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}[٣]، ولو كان لديهم يقين وعلم بذلك لأثبتوا مدعاهم بالأدلة والبراهين، لكنهم كما قال تعالى، انها مجرد ظنون: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[٤]، والظن لن يغني من الحق والحقيقة شيئًا، وظنهم المنسوب لهم من النوع القريب من الشك لعدم امتلاكهم اي دليل او حجة او قرينة على مدعاهم مطلقا، لذلك نجد الامام الصادق (عليه السلام) عند محاججته مع هذا الزنديق المصري، وجهه الى حقيقة وهمهم وظنهم الباطل فقال له: "والله يا أخا أهل مصر إن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر"[٥]، فعبر عن عقيدتهم بإنها مبنية على الظن دون العلم واليقين إذ خاطبه بـ(تظنون)، وإنما عبّر له عن عقيدته بالظن بعد ان اوضّح له بعض الحقائق الوجدانية التي تخالف معتقدهم الفاسد وقد أثمرت محاججة الامام الصادق (عليه السلام) مع الزنديق واهتدى الى الصواب والطريق المستقيم الذي وجهه اليه الإمام (عليه السلام)، بأسلوبه اللين المهذب وحججه

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ٢ / ٧٤.
(٢) الجاثية: ٢٤.
(٣) الكهف: ٥.
(٤) الجاثية:٢٤.
(٥) الاحتجاج: ٢ / ٧٤.

الكوى المدعومة بالأدلة اليقينية، فكانت النتيجة نافعة والمحاججة مثمرة كأغلب المحاججات التي يجريها اهل البيت (عليهم السلام) مع خصومهم.

٢. (ظنّ) الذي يقرب من اليقين: فأحيانا يأتي الفعل (ظنّ) مستعملا بنسبة ظنية عالية تقربه من اليقين اكثر، وتبعده عن الشك، ومن ذلك ما روي عن إمامنا الباقر(عليه السلام)، إذ خاطب المؤمنين واعظا: (والله ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله عز وجل، ورجائه له، وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين، والله تعالى لا يعذب عبدًا بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنه وتقصيره في رجائه لله عز وجل، وسوء خلقه، واغتيابه المؤمنين وليس يحسن ظن عبد مؤمن بالله عز وجل إلا كان الله عند ظنه، لان الله كريم يستحيي أن يخلف ظن عبده ورجائه، فأحسنوا الظن بالله ورغبوا إليه، فإن الله تعالى يقول: "الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ولَعَنَهُمْ وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً"[١])[٢]، فالإمام الباقر(عليه السلام) هنا حثّ المؤمنين نحو حسن الظن العالي المورّي لليقين بالله عز وجلّ من خلال قرينة السياق اللفظي والحالي، فإمام الناس وهديهم يشجع الناس على السلوك الصحيح والتعامل المستقيم لا سيما مع الخالق المنعم تعالى، بالإضافة الى الفقرات التي سبقت حسن الظن "والله ما اعطي مؤمن خير الدنيا والآخرة الا بحسن الظن"[٣]، كذلك الفقرات اللاحقة التي تكشف عن ان السياق واحد في حث المؤمنين الى فعل الخير نحو حسن الخلق وكف الأذى عن الاخرين ¼، ولو لم توجد اي قرينة الا كلمة (حسن) التي أضيف اليها كلمة (الظن) لكفى في دلالتها على الظن القريب من اليقين، اذ لا يناسب كل هذه القرائن فضلا عن الأخرة ان يكون المقصود هو الظن القريب من الشك لانه يتنافى مع الحسن من جهة، ولأنه خلاف الشريعة السماوية والمحجة المحمدية التي تحث العباد على التيقن بحصول الخير والحكمة من الله عز وجل. كذلك نجد إمامنا الصادق (عليه السلام)، قد حذا حذو ابيه وأجداده في حث المسلمين نحو الصراط المستقيم والتعامل السليم مع المنعم على العباد، فضلا عمّا بين العباد أنفسهم، ومن ذلك ماروي عنه(عليه السلام): "خذ من حسن الظن بطرف تروح به قلبك ويروح به أمرك"[٤]، فهنا يربط خطابه بأذهان المتلقين بتوجيههم نحو قضية معنوية عامة ولها أثار إيجابية جمة، حاصلها على الانسان ان يحسن الظن القريب من اليقين في الله اولًا في جميع مقاديره ومقاصده، وان يحسن الظن القريب من اليقين فيما بينه وبين بني الانسان، حتى يكسب راحة القلب وصفاء النفس والسلام الداخلي والعيش بسكينة

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) بحار الانوار، العلامة محمد باقر المجلسي: ٦٧ / ٣٩٩.
(٣) م، ن: ٦٧ / ٣٩٩.
(٤) ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ٢ / ١٧٨٥

ووقار،وهنا دلالة الظن على القريب من اليقين دون القريب من الشك تحكيها قرائن السياق اللفظية والمقامية بما لا يدع للشك مجال، وقد استفاض بل تواتر خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) في توجيه المسلمين وغيرهم بالاستعانة بفعل (الظن) المزري لليقين في ملفوظاتهم، اما نهيًا عن فعل شيء ما والابتعاد عنه ومثل هذا يكون في الظن القريب من الشك عادة، كما في القسم الاول من الشواهد أعلاه، او حثًا على فعل شيء ما والتمسك به،وهذا يكون في الظن القريب من اليقين عادة، كما في القسم الثاني من الشواهد أعلاه.

٣. (لعلَّ): وهو حرف يُشبّه بالفعل لإفادة إنشاء التوقع[١]، يستعين به المتكلم حينما يريد تحديد توجهه وبيان موقفه الشخصي حول القضية المخاطب بها في مضمون قوله المرسل للمتلقي،ولا بد ان يُضمِن المتكلم في فحوى رده الميل عن الجزم في محتوى خطابه المرسل، ليوهن للمتلقي تحليه بصفة النزاهة في الخطاب والموضوعية في البحث عن الحقيقة[٢]، وقد وجدنا شواهد عدّة في خطاب الإمامين الصادقين(عليهما السلام) في مختلف المواضيع ومن ذلك محاججة الامام الصادق (عليه السلام) مع احد المشككين بفضل يوم الغدير في كلام طويل اقتطعنا منه موضع الحاجة، إذ قال(عليه السلام): "ثم قال: أترى ما الفئام؟ قلت: لا، قال: مائة ألف، وكان له ثواب من أطعم بعددهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في حرم الله عز وجل وسقاهم في يوم ذي مسغبة، والدرهم فيه بمائة ألف درهم، ثم قال: لعلك ترى أن الله عز وجل خلق يوما أعظم حرمة منه؟ لا والله، لا والله، لا والله ثم قال: وليكن من قولك إذا لقيت أخاك المؤمن: الحمد لله الذي أكرمنا بهذا اليوم، وجعلنا من المؤمنين، وجعلنا من الموفين بعهده الذي عهد إلينا، وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولاة أمره، والقوام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين والمكذبين بيوم الدين"[٣]، فالإمام هنا استطاع اقناع السائل المنكر وتحويل حالته من إنكار وتشكيك الى إطمأنان وتسليم حيث وجهه توجيها سليما يقتضي التسليم والإذعان، بعد أن أستعان باليمين في مستهل إثبات القضية وكذلك أستعان بالفعل التوجيهي (لعل) الذي يتضمن الموضوعية والابتعاد عن الجزم لكنه يضفي الاطمئنان في صدق المتكلم وموضوعيته في الوقت نفسه، وفي موضع أخر استطاع الامام الصادق (عليه السلام) ان يقنع جمع من الناس في التصدق للحفاظ على أموالهم بعد ان داهمهم الخطر وتوالت عليهم الأخبار في وجود قُطّاع في طريقهم الذي يقصدونه، كما جاء الخبر مرويا عن ابنه موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) عن ابيه الصادق (عليه السلام)، قال: (كان الصادق عليه السلام في طريق ومعه قوم معهم أموال، وذكر

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، لبدر الدين المرادي المصري: ٥٨١.
(٢) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي، (أطروحة دكتوراه): ٢٦٨.
(٣) بحار الانوار: ٩٥ / ٣٠٣.

لهم أن بلزقة[١] في الطريق يقطعون على الناس فلرتعدت فرائصهم، فقال لهم الصادق عليه السلام: مالكم؟ قالوا: معنا أموال نخاف أن تؤخذ منا أفتأخذها منا فلعلهم يندفعون عنها إذارأوا أنها لك؟ فقال: وما يدريكم لعلهم لا يقصدون غيري، ولعلكم تعوضوني بها للتلف؟

فقالوا: فكيف نصنع؟ ندفنها؟ قال: ذاك أضيع لها، فلعل طرئا يطرء عليها فيأخذها؟ أو لعلكم لا تهتدون إليها بعد، فقالوا: فكيف نصنع؟ دلنا، قال: أو دعوها من يحفظها ويدفع عنها ويربيها ويجعل الواحد منها أعظم من الدنيا بما فيها ثم يردها ويوفرها عليكم أحوج ما تكونون إليها، قالوا: من ذاك؟ قال: ذاك رب العالمين قالوا: وكيف نودعه؟ قال: تتصدقون بها على ضعفاء المسلمين، قالوا: وأنى لنا الضعفاء بحضرتنا هذه؟ قال: فاغزوا على أن تتصدقوا بثلثها ليدفع الله عن باقيها...)[٢]، فالمتأمل في محاججة الامام الصادق (عليه السلام) معرفاقئه يجد انه استعان بالفعل التقويبي (لعل) مرتين، إستطاع ان يوظف الفعل التقويبي (لعل) في توجيه جميع المخاطبين وإقناعهم على التصدق، وابقاء المال عندهم بعد ان كانوا مصرين على جمع أموالهم عنده، فلم يرفض مباشرة ولم يمتنع، بل حاول إقناعهم أنّ وجود المال عندي لا يمنع الخطر علي وعلى المال، باستعمال الفعل (لعل)الذي طمأنهم بصدق وموضوعية المتكلم، إذ قال ولا: (وما يدريكم لعلهم لا يقصدون غيري...)، فكلامه جدا منطقي ومستقيم، لكن المخاطب كان في حالة هلع فلا ينظر بعين العقل والبصيرة، بل همهم في إيجاد السبيل للحفاظ على أموالهم، لذلك الامام (عليه السلام)راعى تلك الحالة التي اعترتهم، فخاطبهم بلين وعطف لكي يتقبلوا منه ويقتنعوا بما يريد، وفعلًا استطاع إقناعهم، وبالتالي سلموا وسُلمت أموالهم، وقد استثابوا في تصدقهم بثلث أموالهم، كما وجههم الامام الصادق (عليه السلام)، حتى إنّ رأيهم السابق بدفنها في التراب، غير سديد وعرضة للخطر، لا يقل عمّا فروا منه، فبيّن لهم خواء هذا الرأي بلطف وإرشاد حيث قال:(ذاك أضيع لها، فلعل طرئا يطرء عليها فيأخذها؟ أو لعلكم لا تهتدون إليها بعد، فقالوا: فكيف نصنع؟ دلنا...) فلما اقتنعوا بكلامه تماما واطمأنوا بحججه، سلّموا الامر اليه وطلبوا منه ان يدلهم، وما ذلك الا للقوة الحجاجية الكامنة في خطابه ومحاججته (عليه السلام)، وقد وظّف الأفعال التقويبية التوجيهية في توجيه قناعاتهم وأخذ التسليم والإذعان منهم، فالاستعانة بفعل التقويب في خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) ومحاججتهما للآخرين، لأجل بيان الزاوية الفكرية والموضوعية في فحوى الخطاب الموسل الى المتلقين، فيحقق بذلك نجاح الخطاب ونجاعته في نفوس الاخرين، وهما بذلك يساران قواعد الحجاج التفاعلي والحوار الناجح، الذي يجعل من المتلقي حاضرا[٣]، وهكذا فاتصاف الخطاب بالفعل التقويبي (لعل) يوجه

(١) البلزقة: السيوف.(مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي – برق – ٥: ١٣٩).
(٢) بحار الانوار: ٩٣ / ١٢٠.
(٣) ينظر: التراكيب التعليلية في القرآن الكريم، (أطروحة دكتوراه): ١٣١.

المتلقي الى التطلع والانتظار الى ما بعد الفعل من فحوى الخطاب، فهو ترقب وبحث ذهني يفارق الواقع حين القول وقبل تحققه، لكّنه متصل بذهن المتكلم وعقيدته، فيحصل بذلك الإنشاء لعمل التوقع والرجاء(١).

ثانياً: وسائل التوجيه اليقينية (أفعال اليقين، القصر):

ويمكننا بيان السبب في تسميتها بهذا الاسم؛ لأنها نابعة من الذات، كاشفة عن جانب الحقيقة في كلام المخاطب، تصطبغ بصبغة الإقناع والتأثير لأنها تشتمل على عبارات مقنعة ومؤثرة في ذهن المتلقي من قبيل (اليقين أن) و(الحق أن) و(الأكيد ان) و(حقّقت أن)... الخ، بالإضافة الى ما يضفيه حضور ذات المتكلم على صدق القضية بتحمله المسؤولية بنظر المتلقي من خلال تأكيده على صحة خطابه المرسل الى المتلقي(٢).

وتبرز الروابط اليقينية بمجموعة عوامل حجاجية منها:

أدوات التوكيد، وافعال اليقين، والقصر، الخ، والتي يبرز دورها في إثبات وتأكيد القضايا المنكرة، وترك التردد والشك، وجّر المخاطب الى الإقرار، ومن ثّم الابتعاد عن الجدل والاختلاف بين المتحاجين، فضلًا عن الخلاف والشقاق، امّا ما يخص أهم الموجهات اليقينية فيما تضمنه خطاب الإمامين الصادقين (عليه السلام) والتي دعمت الخطاب الحجاجي لهما، حيث قامت بتوجيه القول والمنقول معا(٣)، وقد ظهر معها الخطاب بشكل حازم وجازم حين إرساله الى المتلقين، وفيما يأتي ذِكر أهمها:

١. أفعال اليقين:

إنّ النحويين اصطلحوا على قسم من النواسخ بـ(أفعال اليقين)، وأحيانا يطلقوا عليها (افعال القلوب)؛ لان معانيها تعتمد على الاعتقادات القلبية دون البصرية(٤)، ومهمة هذه الأفعال انها تحكي عما يعتقده المتكلم من الدعوى التي يرسلها الى المخاطب بوصفها إنّها من اليقينيات التي اعتقد بها المتكلم ورسخت في نفسه وتيقن بمحتواها، فيوظف المحاّج حجاجه وخطابه بافعال القلوب لتوجيه المتلقي لما يطمئن اليه ويعتقد فيه، بعد التأثير فيه وإقناعه، وعليه فإن أفعال اليقين تحمل طاقة حجاجية يستعين بها المتكلم لتوجيه المخاطب لما يبتغيه المتكلم، لا سيما إنّ هذه الأفعال تتضمن حضور ذات المتكلم المتمثلة في إيصال غرضه بشكل جلي الى المخاطب من خلال تعبيره(٥)، ومن أمثلة الأفعال اليقينية: (رأى، علم، وجد، درى، ألفى)، وسنبحث الطاقة الحجاجية لها في جملة مما تضمنه خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) فيما يأتي:

---

(١) الخطاب الحجاجي السياسي، (أطروحة دكتوراه): ٢٦٩.

(٢) ينظر: الحجاج في القرآن: ٣١٧.

(٣) المقصود من القول الحضور الذاتي للمتكلم في خطابه، اما المقول فيقصد به موضوع الكلام. ينظر: الحجاج في القرآن: ٣١٦.

(٤) ينظر: حاشية الصبان على شرح الاشموني: ٢ / ٢٨.

(٥) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي، (أطروحة دكتوراه): ٢٦٢.

أ. (رأى): وتأتي بمعنى الرؤية القلبية لا البصرية كما أشرنا سلفا، وتفيد في حصول اليقين والجزم[١]، وقد وظّفها الامام الباقر(عليه السلام) في الاستعانة به كوسيلة توجيهيه لإقناع المتلقي وكسب رأيه وتغيير فكره، إذ قال(عليه السلام): (إذا أردت أن تعلم أن فيك خيرا فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحب)[٢]، فالإمام الباقر(عليه السلام) يوجه المتلقين الى حقيقة ومعيار رصين في معرفة منزلتك عند الله عزّ وجلّ وحبّه إليك وإن جوهرك مليء بالخير فأنظر الى قلبك متفحصا حبه ومنزلة اهل طاعة الله عز وجلّ فيه، وهذا امرٌ معنوي ليس بالمادي الذي يمكن رؤيته او قياسه بمقاييس مادية، فما هو السبيل لمعرفة ذلك ؟ لقد أجاد الامام(عليه السلام) بفيض علمه ونمير معرفته في خطابه للمسلمين، وكل من يستمع لخطابه،راشدا اياهم في التوجه الى تفحص القلوب ورؤية مكانة المؤمنين وحبهم فيها، فبمقدار حبك لأهل طاعة الله بعد تفحص قلبك من خلال الرؤية القلبية اعلم ان الله يحبك بالمقدار عينه، وبمقدار كرهك وبغضك لأهل طاعة الله وحبك لأهل معصية الله ستكون منزلتك من البغض والابتعاد عند الله، وهذه الحقيقة مقنعة نوعًا ما للمتلقي، وقد وردت فيها احاديث وروايات كثرة عن اهل البيت(عليهم السلام) منها ماورد عن امير المؤمنين (عليهم السلام): (سلوا القلوب عن المودات، فإنها شهود لا تقبل الرشا)[٣]، فمنذ ان بدأت الخليقة فهناك فريقان وطريقان وقد أشار إليهما الله تعالى في آيات عديدة منها قوله تعالى في الحث على اتباع أولياء الله ونصرتهم: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[٤]، وفي مكان اخر قد حثّ الله المسلمين على اتباع النبي (صلى الله عليه واله وسلم) لينالوا محبة الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥]، وفي أية ثالثة حذّر المسلمين من محبة وتولي اهل معصية الله تعالى حيث قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ}[٦]، وهكذا دواليك جملة من الآيات التي دلّت على تلك الحقيقة صراحة بلا توهم او تأويل، لكن براعة الامام الباقر(عليه السلام) جعلته يستنتج معيارًا واضحًا وحقيقيًا ليهبه للمسلمين من جهة، ولحثهم لمحبة اهل طاعة الله تعالى وبغض اهل معصية الله تعالى والتوي من افعالهم القبيحة من جهة أخرى، كذلك نجد الامام الصادق (عليه السلام)

(١) ينظر: الشامل، عبد الله محمد النقواط: ٤٩٨.
(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ١ / ٥١٥.
(٣) غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي: ٥٦٤١.
(٤) المائدة: ٥٦.
(٥) ال عمران: ٣١
(٦) الممتحنة: ١٣.

يحاجج المتلقي ويستميل قلبه عبر توظيف رابطًا توجيهيًا حينما سأله رجل: "أرأيت الله حين عبدته؟: ما كنت أعبد شيئا لم أره، قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس،ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه"(١)، فالإمام الصادق (عليه السلام) وجّه السائل الى المعنى الحقيقي للرؤية وهي القلبية لرفع توهمه عن الرؤية البصرية، لأن الله عزّ وجلّ ليس جسمًا ماديًا حتى يرى في البصر، ولو كان يُرى في البصر لكان مفتقرًا للمكان والزمان تعالى عن ذلك علوا كبيرًا، وهو الغني المطلق عن كل شيء، وهو القائل في كتابه العزيز {لا تُدْرِكُهُ الْأَبصارُ وهُوَ يُدْرِكُ الْأَبصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(٢)، وكذلك ماروي عن الامام الصادق(عليه السلام) لسفيان الثوري ت (١٢٦هـ)*(٣): "يا سفيان، إني رأيت المعروف لايتم إلّا بثلاث: تعجيله وستره وتصغيره، فإنك إذا عجّلته هنّأته، وإذا سترته أتممته، وإذا صغّرته عظم عند من تسديه إليه"(٤)، فهنا استخدم الامام الصادق ع كلمة (رأى) القلبية التي تفيد اليقين لا رأى البصرية، لأن المعروف امر معنوي لا يرى بالعين بل يعرف من خلال الاعمال الصالحة، وقد أدت هذه المفردة دورا مهمًا وكبيرًا في إقناع المتلقي وتوجيهه نحو الاهتمام بالأمور الثلاث التي أوصى بها الامام الصادق (عليه السلام) في كل عمل معروف، حتى يكون تام الأجر والفائدة.

ب. (علَم): يمتلك هذا الموجه اليقيني طاقة حجاجية انجازية كبيرة جدا، تتحقق حينما تقوم بحمل المخاطب على الإقناع والإذعان، ورفع الشك والإنكار، وله مصاديق عدة في خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) من ذلك، ما خاطب به الامام الباقر (عليه السلام) بعض اصحابه مشددا عليهم الدقة في النقل والقول بالعلم، إذ قال(عليه السلام): "ما علمتم فقولوا، وما لم تعلموا فقولوا: الله أعلم، إن الرجل لينتزع بالآية من القرآن يخر فيها أبعد من السماء"(٥)، فالامام الباقر(عليه السلام) يخاطب اصحابه ويحثهم على تحري العلم في القول والاعتقاد، وينهاهم عن القول بغير علم، لما للعلم من حجية شرعية وقانونية وضعية وقبول عقلائي بين المتخاصمين وإذعان وتسليم لدى المتحاجين، فالعلم يعتمد على البرهان الذي يولد اليقين او الاطمئنان في

(١) الاحتجاج، الطوسي: ٢ / ٢١١.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) ابن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي بن عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وكذا نسبه ابن أبي الدنيا عن محمد بن خلف التيمي، غير أنه أسقط منه منقذا والحارث، وزاد بعد مسروق حمزة، والباقي سواء، وكذلك ذكر نسبه الهيثم بن عدي، وابن سعد، وأنه من ثور طابخة، وبعضهم قال: هو من ثور همدان، وليس بشيء. ينظر: سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي: ٧ / ٢٣٠.
(٤) الامالي، الشيخ الطوسي: ٤٨٠.
(٥) موزان الحكمة: ٢ / ١٢١٩.

الوصول الى الحقيقية، وهذا مبتغى كل باحث موضوعي، وما دون العلم يبقى ظنًا ووهمًا، لا يرتقي الى اليقين ومتولته متدنية ولن يوصل الى الحقيقة على نحو القطع والجزم، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع الظن في اكثر من آية كريمة منها قال تعالى: {و ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ}(١)، وقد حثّ الله تعالى في آيات أخرى على متابعة العلم وتحريه في القول والاعتقاد والعمل، منها قوله تعالى: {وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا}(٢)، لذلك نجد الامام الباقر(عليه السلام) وهو حجة الله وخليفته على الارض يوافق في دعواه ما يدعوا اليه منهج الاسلام المحمدي الأصيل، في اتباع العلم وتحريه في القول والمعتقد والفعل، والابتعاد عمّا دون العلم لإنه ظن ووهم وهما لا يغنيان ولا يوصلان الى الحقيقة؛ لعدم إنتاجهما اليقين والاطمئنان؛ لبقاء باب الاحتمالات بالخلاف مفتوح.

كذلك نجد ابنه وحامل فقاهته الامام الصادق (عليه السلام) ينهج منهج ابيه في الاعتماد على حجية العلم في خطاباته ومحاوراته مع المسلمين، وغيرهم من الديانات، بل حتى مع الملحدين الذين كانوا يحاورونه باستمرار، ويخرجون منه بأتم ارتياح، وان كان كثير منهم يعزّ عليه ترك العناد، وان اطمأن وأقنعه الإمام بالأدلة على بطلان معتقده وفساد قوله، ومن ذلك ما روي لنا في حادثة الرجل الذي قدّم للإمام الصادق (عليه السلام) سؤالا عقائديا مهما في معرفة واجب الوجود، إذ ابتدر بسؤال الإمام(عليه السلام): "على ما ذا بنيت أمرك؟ فقال (عليه السلام): على أربعة أشياء: علمت أن عملي لا يعمله غيري فاجتهدت، وعلمت أن الله عز وجل مطلع علي فاستحييت، وعلمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأننت، وعلمت أن آخر أمري الموت فاستعددت"(٣)، فعمد الامام (عليه السلام) الى توظيف كلمة العلم في جواب السائل في أربعة مفاصل مهمة من جوابه، لما تمتلكه هذه المفردة من طاقة حجاجية كبيرة وقوة اقناعية مؤثرة فلم يقل ظننت او توهمت؟ ولو قال ظننت، لرد عليه السائل السؤال مرة ثانية وثالثة؛ لعدم القناعة والتسليم بما يأتيه من الجواب الظني، لكن الامام كان ملتفتا لمثل ذلك فأستعمل المفردة الاهم والضرورية لمثل هكذا مقام، ولا أعلم استعمال اهل البيت (عليهم السلام) في أجوبتهم لكلمة أظن او اشك او أتوهم في أجوبتهم لمن يسألهم مستفهمًا، بل كانت المفردة الوحيدة التي تناسب مقامهم وعلمهم هي العلم وما اشتق منه، او ما شاكل من افعال اليقين التي تبعث الاطمئنان واليقين في ذهن وقلب المتلقي ليتم توجيهه الى الجهة السليمة التي يريدها الامام المعصوم (عليه السلام).

---

(١) يونس: ٣٦.

(٢) الاسراء: ٣٦.

(٣) بحار الانوار: ٧٥ / ٢٢٨.

ج. (وجد): إنّ هذا الفعل ينفع في توجيه الخطاب واقناع المتلقي، بإرسال اليقين والاطمئنان في ذهن المتلقي لفحوى خطاب المتكلم ومراده، ومن ذلك ما نجده في خطاب الامام الصادق(عليه السلام) للمسلمين، إذ روي عنه (عليه السلام): (وجدت علم الناس كله في أربع: أولها أن تعرف ربك، والثاني أن تعرف ما صنع بك، والثالث أن تعرف ما أراد منك، والرابع أن تعرف ما يخرجك من دينك)[١]، فالإمام (عليه السلام) اراد توجيه المتلقين للاشتغال بأفضل أنواع العلم، الذي ينفع الانسان تعلمه ويضره جهله، وصدّر كلامه بالموجه اليقيني (وجدت)؛ لأجل تحفيز الخطاب ودعمه بطاقة وفيرة ليتلقى المخاطب فحوى الخطاب وهو على يقين واطمئنان دون ظن وإيهام.

د. (الفى): إنّ هذا الفعل من وسائل التوجيه اليقيني التي يُستعان بها في توجيه المخاطب نحو جهة معينة ومقصودة للمتكلم، بعد ان يورثه اليقين والاطمئنان، كما في استشهاد الامام الباقر (عليه السلام) ببعض الشعر؛ الذي تضمن الفعل اليقيني (الفى) لعضد حجته وإثباتها، إذ قال "اليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه، أوما سمعت قول حاتم: "إذا ما عزمت اليأس ألفيته الغنى * إذا عرفته النفس والطمع الفقر"[٢]، فالامام الباقر (عليه السلام) نّفر المتلقين عن صفة دنيئة وهي الاحتياج الى ما في أيدي الناس، من خلال الحث والتشجيع على ضدها "اليأس عما في أيدي الناس"، وجعل عزّ المؤمن مكنون في حالة اليأس عمّا في أيدي الناس، واعضد مدعاه وفحوى خطابه بقول رجل عرفه العرب بكرمه بما لا يداني ذلك شكا، وقد استخدم في قوله الفعل (الفى) لما يمتلكه من طاقة حجاجية مسيرة بفعل اليقين الذي يبعث المخاطب ويوجهه نحو التسليم والإذعان من دون تردد، وهناك شواهد أخرى كثيرة في كلامهما(عليهما السلام) تنفع في المقام، وفي مواطن وموضوعات عدّة، أحصاها أصحاب المجاميع الروائية من علمائنا قديمًا وحديثا ضمن الموروث الروائي لأهل البيت (عليهم السلام)، والمتتبع لذلك يجد اهتمامهم جميعا (عليهم السلام) بتوظيف الموجّهات التي تتضمن افعال اليقين، لأن غايتهم اقناع المتلقين والأخذ بإيديهم نحو الطريق المستقيم في امور دينهم ودنياهم، لما وهبهم الله عز وجلّ من الحكمة والعلم، فلم يبخلوا في نشره والتصدق به الى جميع بني الانسان والمسلمين.

٢. القصر:

من الأساليب اللغوية المهمة في افادة ربط الخطاب وتوجيهه في ذهن المتلقي.

ومعناه في اللغة: يأتي بمعنى الحبس؛ اما في الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[٣]، ومن ثَم فهو من الأساليب التي تستخدم في التأكيد والاختصاص، وحصول التأكيد من خلال نفي الحكم الاخر

(١) شرح اصول الكافي، محمد صالح المازندراني: ٢ /٢٠٠.
(٢) ميزان الحكمة: ٣ / ١٩٥٩.
(٣) مختصر المعاني، لسعد الدين التفتازاني: ٢ / ١٦٦.

واثبات حكم معين للموضوع، وفي النفي يستخدم احد احرف النفي مع (إلا)، او يستخدم (إنما، التي يكون النفي فيها ضمنا لا صراحة كالطريق الاول؛ أما التخصيص فيكون من خلال اختصاص أحد الاحكام بموضوع ما دون غيره، ومن ثم ينتج تأكيد واثبات النسبة بين الحكم والموضوع[١]، وأرباب البيان أكدوا في بحث أسلوب القصر على ركنين أساسين، غرض المتكلم وغايته من الاختصاص، وحال المخاطب التي عرفها المتكلم، واجرى بسببها التخصيص[٢]، ومن مصاديق هذه الأغراض، توجيه المخاطب من قبل المتكلم الى الجهة التي يبتغيها، وحثه بواسطة القصر الذي يمتلك مجموعة من الاستراسلات والاستلزامات الى التفكير والاستنتاج وتوجيه فحوى الخطاب الى نتيجة وجهة مقصودة للمتكلم وقد تحقق أسلوب القصر في خطاب الإمامين الصادقين (عليهما السلام) الحجاجي ضمن مجموعة من العوامل والأدوات الحجاجية منها: (لا) مع (إلا)، و(ما) مع (الا)، و(لم) مع(الا)، و(هل) مع (الا)، و(إنما)، وقد استعين بها في توجيه الملفوظات لما إبتغاه الإمامان من الوجه الحجاجي، واقناع الجمهور، وحثّهم على الاعتقاد في جملة منه، واستعمال العوامل الحجاجية تختلف باختلاف المقامات والملابسات والظروف المقترنة بعملية المحاججة والتخاطب، وبحسب مستوى الإنكار لدى الخصم ومستوى معرفته، وليتضح الأمر أكثر سنجري عملية تطبيقية من خلال ذكر جملة من الشواهد فيما يأتي لإيضاح القوة الإنجازية الحجاجية التي تمتلكها هذه العوامل، والتي توافق فحوى دعوة المتكلم فيما ساقه الإمامين الصادقين (عليه السلام) من حجج في خطابهما، وقد ذكر علماء البيان والبلاغة ان للقصر أربعة طرق مشهورة[٣]:

أ. القصر بالعامل الحجاجي (النفي مع الاستثناء): (لم، لا، هل، ما، ... إلا):

انما يُستعان بهذا العامل فيما اذا كان المخاطب شاك او منكر في مدعى المتكلم، فيستعين المتكلم بهذا العامل لرفع الشك والإنكار عن ذهن المخاطب؛ لما يتضمنه من قوة حجاجية يستطيع من خلالها إقناع المتلقي وتوجيهه لما يبتغيه، كما نلحظ ذلك في خطاب الامام الصادق (عليه السلام) حينما نقل لنا الحادثة التي جرت مع ابيه حين خروجه معه، إذ قال: "خرجت أنا وأبي (عليه السلام)حتى إذا كنا بين القبر والمنبر، إذا هو بأناس من الشيعة، فسلم عليهم فردوا عليه السلام، ثم قال: إني والله لأحب ريحكم وأرواحكم، فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد، واعلموا أن ولايتنا لا تنال إلا بالعمل والاجتهاد، من ائتم منكم بعبد فليعمل بعمله"(٤)، ففي هذا الخطاب اللفظي يقدم الامام الباقر (عليه السلام) موعظة لشيعته ومحبيه، فيها مجموعة أدوات حجاجية حيث تضمنت حرفي التأكيد (إني) والقسم "والله" واللام "لأحب" وضمير الخطاب "ريحكم وأرواحكم"، كل ذلك قدمه تمهيدًا

(١) ينظر: البيان في روائع القرآن، تمام حسّان: ٢ / ١٣٦.
(٢) ينظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح: ٧/٢.
(٣) المعني والبيان والبديع، احمد أمين الشواري: ١١٤.
(٤) الامالي، الشيخ الصدوق: ٧٢٥.

لإقناعهم بإن خطابه لهم خطاب ناصح محب شفيق، وما سيسمعونه لابد ان يهتموا به ويطبقونه وهو "فأعينوني على ذلك بورع واجتهاد"، فمجرد وجود المحبة بيننا لا تفي بالغرض،ولا تؤدي الغاية المنشودة للإمام المعصوم، ثم ردف ببنية القصر ليدعم الحجاج بقوة إنجازية واضحة وصريحة، تجعل المتلقي لا يستطيع التأويل بأوهام واقاويل باطلة، إذ قال "واعلموا انولايتنا لا تنال الا بالعمل والاجتهاد..."، اي إنّ منزلة الولاية العظيمة والتي هي فرع من فروع الدين –الموالاة لأهل البيت والتولي من اعدائهم–[١] في المذهب الأمامي الأثني عشري، فبما للولاية من منزلة عظيمة واحاديث في فضلها جدًا كثيرة، لكنّ هذه الموالاة لا يمكن الحصول عليها بمجرد الادعاء او الحب، بل لابد من الورع والاجتهاد في طلب رضا الله عز وجل، وهذا المعنى قد اتضح جليا بلا غموض، لوجود العامل الذي افاد التخصيص، بالإضافة الى عمل (لا) النافية للحاضر والمستقبل فيما اذا دخلت على الفعل المضارع، ففي الكلام أعلاه أفادت معنى كان مقصودا للإمام الباقر (عليه السلام) وهو نفي الانتفاع بالولاية في الحاضر والمستقبل اذا تجردت من العمل الخالص لله والورع عن محارمه، وهنا تظهر فائدة القصر جلية في التخصيص وازالة الاحتمالات الاخرى من ذهن المتلقي وانحصارها باحتمال واحد ومعنى فرد، وكذلك ماورد عن الامام الصادق (عليه السلام) مخاطبًا أحد اصحابه بوعظ وإرشاد: "يا بن جندب لا تقل في المذنبين من أهل دعوتك الا خيرا، واستكينوا الى الله في توفيقهم، وسلوا التوبة لهم"[٢]، والكلام له صلة بما قبلة من حيث إفادة القصر للتخصيص والحصر، فالإمام الصادق(عليه السلام) نهى ابن جندب عن قول السوء فيمن اساء او أذنب ممن كان من المؤمنين، فكل ابن ادم خطاء، ويرشده الى امر لطيف وصفة جميلة لكسب الود والرحمة بين المؤمنين، فبدل ان تستغيب أخاك لعله معذور في فعله لجهل او اضطرار او اكراه، وحتى ان لم يكن معذورا، فالأفضل من استغابته أو الانتقاص منه امام الاخرين الدعاء له بالتوبة والتوفيق في حياته، وما اجمل هذا الأسلوب والطريق الذي اعتمده اهل البيت (عليهم السلام) قولا وفعلا، وقد فعلوه ضد خصومهم قبل ان يعلّموا الناس عليه، وقد ادى اُسلوب النفي والاستثناء الى التخصيص في قول الخير فقط في من يعرفه المخاطب من المؤمنين، وساعد ذلك المعنى دخول (لا) النافية على الفعل المضارع، فأفادت نفي الحاضر والمستقبل في إباحة قول السوء في المؤمنين، وللقصر أنواع أخرى من حيث كونه حقيقي او إضافي، والحقيقي قليل لكن ميدان الأدباء يزدحم بتبارزهم في الإضافي وفيما يأتي بعض نماذجه:

(١) بحار الانوار: ٦٦ / ٢٤١.
(٢) بحار الانوار: ٧٠ / ٢٨٠.

١. قصر القلب: وسُمي كذلك؛ لإن المخاطب يعتقد عكس ما يعتقده المتكلم، فيقوم المتكلم بتوجيه المخاطب بقلب اعتقاده(١) لما يريد ويرغب، ومن شواهد ذلك ما خاطب به الامام الباقر (عليه السلام) جابر الجعفي(٢): (يا جابر، أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون – يا جابر – إلا بالتواضع، والتخشع، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا امناء عشائرهم في الأشياء)(٣)، فالإمام الباقر (عليه السلام) قلب اعتقاد جابر ومن معه الذين كانوا يعتقدون إن التشيع لآل البيت (عليهم السلام) يحصل بمجرد الحب لهم! فقلب اعتقادهم وأوضح لهم مجرد ان الحب لآل البيت لا يساوي التشيع، بل التشيع هو طاعة الله وتقواه... الخ، فما ذكره من صفات لا علاقة لها بمجرد الحب، ولعل في زمنه وكما اليوم في زماننا يحصل الاشتباه لدى بعض اتباع أهل البيت (عليهم السلام)؛ بسبب بعض الروايات الموضوعة عليهم او سماع بعض المغالين في نقله لبعض ما ينسبه اليهم زورا، فتحصل حالة من الغلو والابتعاد عن الطريق المستقيم الذي يحث عليه اهل البيت (عليهم السلام)، لذلك احتاجوا الى التنبيه والتحذير من هكذا مفاهيم وطرق منحرفة ومغلوطة لدى بعض اتباعهم، فضلا عن كونها أصبحت دين يدان به الله ويتقرب اليه بها من البعض وهي بعيدة عن مذاق اهل البيت (عليه السلام)، بل نهوا عنها مرارًا وتكرارًا، بل أرشدوا شيعتهم الى الطريقة الصحيحة في موارد ومواقف عديدة، منها هذا الحديث السالف الذكر، وغيره كثير سواء ماورد عن الامام الباقر او الصادق (عليهما السلام).

٢. قصر إفراد: فيما اذا اعتقد المخاطب بالاشتراك بين شيئين في شيء ما، فيوجهه المتكلم الى زيف معتقده من خلال الإفراد لأحدهما دون الاشتراك(٤)، ومن شواهد ذلك ما ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) محملا بعض اصحابه وصية لشيعته: " بلّغ من لقيت من موالينا عنا السلام، وقل لهم: إني لا أغني عنكم من الله شيئا إلا بورع، فاحفظوا ألسنتكم وكفوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين"(٥)، فالإمام حث المتلقين عيّن لهم ما اشتبهوا فيه على نحو الإفراد لا الاشتراك، حيث ظنّ بعضهم إن عمل المنكرات والسيئات لا يضر مع حب الامام الصادق (عليه السلام) وموالاته، فصحّح لهم الاشتباه السقيم، وأرشدهم الى الصراط

(١) ينظر شروح التخليص، القزويني: ٢ / ١٧٦.

(٢) جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي)٦٠ هـ – ١٣٢ هـ / ٦٨٠ – ٧٥٠م:(تابعي، مفسر، محدث، ومن أقدم مؤرخي العرب. من كبار فقهاء الشيعة، من أهل الكوفة. أثنى عليه بعض رجال الحديث السنة، واتهمه آخرون بالقول بالرجعة. وكان واسع الرواية غزير العلم بالدين والأخبار. ينظر: سير اعلام النبلاء، الذهبي: ٣ / ١٩٩.

(٣) الامالي، الصدوق: ٧٢٥

(٤) ينظر شروح التلخيص: ٢/ ١٧٦.

(٥) اهل البيت في الكتاب والسنة، محمد الريشهري: ٣٢١.

المستقيم في القرب الإلهي والفوز بالجنان بعمل الصالحات ومنها موالاة اهل البيت (عليهم السلام) والابتعاد عن المنكرات، فالموالاة بمفودها نافعة دون الاشتراك مع الاعمال القبيحة والكبائر المنكرة.

٣. قصر تعيين: ويؤدي وظيفته في ما اذا اشتبه الحال على المخاطب وتردد بين امور عدة، فيقوم المتكلم بتوجيهه نحو شيء معّين، للاعتقاد به ولنفي الشك والشبهة والتردد عنه[١]، ومن شواهد ذلك ما خاطب به الامام الصادق (عليه السلام) بعض اصحابه، ليحمل وصيته لشيعته واتباعه، اذ قال: "بلغ معاشر شيعتنا وقل لهم: لا تذهبن بكم المذاهب، فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد في الدنيا، ومواساة الإخوان في الله، وليس من شيعتنا من يظلم الناس"[٢]، فبعض الشيعة اشتبه عليهم الحال واضلوا الطريق في طلب الولاية ومعرفة حقيقتها، فقام الامام(عليه السلام) ببيانها لهم وتعيين حقيقة الولاية، ودفع الأوهام والشبهات عنهم، فبعد ان اشتبه الأمر على بعض الشيعة وترددوا في معنى الولاية، خاطبهم الامام الصادق (عليه السلام) ليّعين لهم المعنى الحقيقي للولاية دون المعاني الاخرى التي ترددوا فيها.

ب. القصر بالعامل الحجاجي (إنما): وهي الاداة الاهم من أدوات القصر وأكثرها تخصصا وتمحضا فيه، حتى إن عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤ هـ) صرح في إفادة عمل (إنّما) في مواضع الخبر التي يكون المخاطب على علم به، دون المواضع التي يجهل الخبر فيها[٣]، وتتميز طاقتها وصفتها الحجاجية في كونها تستخدم لأجل تنبيه المتلقي للقيام بما هو واجب عليه، كخطاب الامام الباقر(عليه السلام) لبعض صحابة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم)، إذ قال: "إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منا أهل البيت ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الامام منا أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله هكذا والله ضلالا"[٤]، فالمتكلم هنا استعان بالعامل الحجاجي (إنما)، واستفتح به كلامه ليوجه المخاطب الى إثبات ما بعده من فحوى الخطاب، ونفي ما عداه كما هو وظيفته في القصر[٥]، وهذا الملفوظ (إنما) مثّل أساس الحجة التي قدمها الامام الباقر (عليه السلام) للمخاطبين مباشرة او تقدوا ممن سيصله كلام الامام ويعتقد به، إذ تضمن فحوى حاصلها أن معرفة الله وطاعته لا تكفي من غير معرفة حجج الله وطاعتهم وهم أئمة اهل البيت المعصومين (عليهم السلام)، من بعد رحيل النبي (صلى الله عليه واله وسلم)، وهناك احاديث نبوية متواترة عند الفريقين بهذا المعنى، منها: (من مات ولم

(١) شروح التلخيص: ٢ / ١٧٧.
(٢) اهل البيت في الكتاب والسنة: ٣٢١.
(٣) ينظر: دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٣٣٠.
(٤) الكافي، الشيخ الكليني: ١ / ١٨١.
(٥) ينظر: دلائل الاعجاز: ٣٣٣.

يعرف امام زمانة مات ميتة جاهلية)[١] ونحوه كثير مما ملأ كتب الأحاديث عند الفريقين، وبمجموعها تؤيد فحوى خطاب الامام الباقر(عليه السلام) في الحديث أعلاه، وقد احسن المتكلم حينما استعان بالعامل الحجاجي(انما) لنفي الشبهات والاحتمالات البعيدة عن الحقيقة، واثبات الحقيقة وإرسالها لهم بأسلوب حجاجي مقنع ومؤثر ومحاط بأدوات وطاقة حجاجية كبيرة، ونظير هذا الأسلوب قد ُاستخدم كثيرا في كلام الإمامين الصادقين (عليهما السلام)، وفي مواضيع متنوعة، ومن ذلك ما روي عن الامام الباقر (عليه السلام) مخاطبا بعض شيعة ابيه وأجداده، قائلا: "إنما يعبد الله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالا. قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وموالاة علي عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم، هكذا يعرف الله عز وجل"[٢]، فالامام قام بنفي الاحتمالات التي ممكن ان تكون نافعة في عبادة الله عز وجل من غير معرفته، ويثبت احتمال واحد وطريق فرد في الانتفاع من عبادته اذا اقترن بالمعرفة، ولم يجعل السائل في حيرة بل بين طريق المعرفة وكيف يمكن الوصول اليه، وقد اثبت ذلك بالعامل الحجاجي (إنما)؛ لأدائه الغرض المنشود للمتكلم، وأحيانا أخرى نجد الامام (عليه السلام) يوظف اداة الحصر والحجاج (إنما) في خطابه ضمن بعض أساليب المجاز لتأكيد الصورة وتحبيبها في ذهن المتلقي والمخاطب من جهة، ولإثباتها ونفي ما عداها من جهة أخرى كما في وصفه لمن اصاب المال حديثا حيث ورد عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام): "إنما مثل الحاجة إلى من أصاب ماله حديثا، كمثل الرهم في فم الأفعى أنت إليه محوج وأنت منها على خطر"[٣]، فهنا جعل وصف الشخص حديث التحصيل والكسب المالي في الدنيا كمثل الذي وضع رهما محتاجا اليه في فم أفعى، يريد بيان شحته وحرصه على كسب الأموال والحفاظ عليها خشية ضياعها والعودة الى الفقر والحاجة، فتراه خائفًا حذرًا في كسبها والحفاظ عليها، واستفتح خطابه بـ (إنما)؛ لإثبات تلك الحقيقة وذلك الوصف في اذهان المتلقين حتى يتنبهوا لذلك ويكونوا على حذر منه، كذلك نجده في موضع اخر يستخدم الحقيقة بعيدا عن المجاز، لأن الغرض والغاية تتطلب ذلك في بيان الصفات والحث عليه وتأكيدها في اذهان المتلقين لتحصيلها والتحلي بها، مصدرا خطابه بـ(إنما)، إذ روي عنه في موضع آخر انه قال(عليه السلام): "إنما شيعة علي المتباذلون في ولايتنا، المتزاورون لإحياء امرنا، ان غضبوا لم يظلموا، وان

(١) صحيح مسلم: ٣ / ١٤٨٧، الكافي للكليني: ١ / ٣٧٧.
(٢) الكافي: ١ / ١٨٠.
(٣) ميزان الحكمة، الريشهري: ١ /٧٠٤.

رضوا لم يسوفوا، بركة لمن جاوروا، سلم لمن خالطوا[١]، وقد وظّف العامل الحجاجي واداة القصر (إنما) في حصر عنوان الشيعة لمن امتلك تلك الصفات المذكورة في خطابه بعد العنوان، ومن لا يمتلك تلك الصفات فلا يسمى ولا يكون مصداقا لعنوان الشيعة، فنفى الاحتمالات التي ممكن ان توهم الناس في حصول هذا العنوان كالمحبة وعمل الشعائر ونحو ذلك، واثبت احتمالا واحدا ومعنى حقيقيا، وقد خصّص العنوان فيه وحصره بـ (إنما)، كذلك نجد جملة من خطابات الامام الصادق (عليه السلام) قد استخدم الاداة الحجاجية (انما) ليوظفها في نفي كل الاحتمالات الا واحدا منها، وجعل المدعى مختصا فيه، ومن ذلك ما خاطب به الامام الصادق(عليه السلام) بعض شيعته مستنكرا عليهم بعض افعالهم: "إنما شيعة علي من عف بطنه وفوجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه، فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر"[٢]، والذي دعى الإمام ان يكرر مثل هذا الخطاب والكلام لاتباعه ومحبيه، لوجود الاشتباه والتأويل الواهم الذي يقع فيه اتباع اهل البيت (عليهم السلام) بين الحين والآخر في تفسير حقيقة التشيع لهم، لذلك نجد الامام الصادق(عليه السلام)، وفي مواطن مختلفة يكرر بيان الحقيقة، وهنا بدأ الكلام بعامل حجاجي له طاقة حجاجية كبيرة في الإقناع من حيث نفي الاحتمالات ورفع التوهمات والتأويلات وحصر المدعى في احتمال واحد صريح فصيح لا يقبل التأويل والاشتباه؛ لخطورة الامر وأهميته، لذا نلاحظ المتكلم استعمل أقوى الأدوات الحجاجية لنفي الاحتمالات واثبات احتمال واحد تتوجه الحقيقة له وتحيط به من كل جانب.

ومن الجدير بالذكر الإشارة الى كثرة الالتفاتات النافعة في الموروث الإمامي حينما تجد أئمة اهل البيت (عليهم السلام) يعتنون بتصحيح المفاهيم المختلفة والمتنوعة للناس لما وهبهم الله العلم والمعرفة، فلم يقتصروا على بيان حقهم او ارشاد الناس لمستقيم الطريق في حياتهم، بل حتى في بيان الآيات القرآنية وتصحيح فهمهما ونفي الاشتباه عن اذهان المسلمين في فهمها، ومن ذلك تفسير الامام الصادق (عليه السلام): (في قول اراهيم (عليه السلام) حينما رأى كوكبا: {قال هذا رَبِّي}، إنما كان طالبا لربه ولم يبلغ كفوا، وإنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته)[٣]، فنفى التوهمات والاحتمالات الخاطئة التي استظهرها بعض المسلمين من الآيات في حال النبي اراهيم(عليه السلام)، إذ توهم البعض إن اراهيم قد أشرك او كان غير مؤمن بالله تعالى، وأثبت الحقيقة وجعل قول اراهيم مختصا بها وهي انه كان يبحث عن ربه لا انه آمن فعلا بربوبية الشمس او نحوها.

(١) الخصال، الصدوق: ٣٩٧.
(٢) موزان الحكمة: ٢ / ١٥٣٩.
(٣) م، ن: ٣ / ٢٧٠٩.

المصادر

١. القرآن الكريم
٢. اسوار البلاغة، ابو بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المدني، جدة- السعودية، د.ط.
٣. بحار الانوار، محمد بن باقر المجلسي، مؤسسة ال البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، د.ت.
٤. البرهان في علامات اخر الزمان، المتقي الهندي، مركز الدراسات التخصصية في الامام المهدي، د.ت.
٥. التعريفات، الشريف الجرجاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.
٦. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢ م.
٧. حاشية الصبان على شرح الاشموني، محمد بن علي الصبان الشافعي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٢٢٥ هـ / ٢٠٠٢ م.
٨. الحجاج في القران، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
٩. سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، دار احياء التراث العربي، تحقيق: حسين الأسدي، ١٩٩٣م.
١٠. شرح اصول الكافي، المولى محمد بن صالح المازندراني، تحقيق: علي عاشور، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٢م.
١١. شروح التلخيص، الخطيب القزويني واخرون، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط.
١٢. صحيح مسلم، ابو الحسن مسلم بن عجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د.ت.
١٣. الغدير، عبد الحسين الأميني، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، د.ت.
١٤. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، منشورات دار الفجر، بيروت، مطبعة الخيام، قم المقدسة، د.ت.
١٥. مختصر المعاني، سعد الدين التفتزاني، قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة قم المشرفة، د.ت.
١٦. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، الامام السيد ابو القاسم الخوئي، مؤسسة الامام الخوئي الاسلامية، د.ت.
١٧. الحجاج في نهج البلاغة-الوسائل اختيارا-(أطروحة دكتوراه)،رائد مجيد جبار الزبيدي، جامعة البصرة- كلية الآداب، البصرة-العراق، ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٣ م.
١٨. الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة-(أطروحة دكتوراه) ابتسام بن خواف، جامعة الحاج لخضر بانته/كلية الآداب والعلوم الانسانية، الجزائر، ٢٠١٠ م.